اغلاط المولدين

(تتمة ما سبق)

وقد اتفق مثل هذا للمرحوم الوالد ايضاً ولا بأس ان نورد ههنا شيئاً من امثلتهِ درءًا للظنون واخلاصاً في القصد من كتابة هذا الفصل. فمن ذلك قولهُ رحمهُ الله من قصيدة

يا دار من اهواهُ حيّاكِ الحيا وكساكِ بُردَ خزامهِ واقاحهِ

وقد تقدم لنا في لغة الجرائد كلامٌ عن لفظة الاقاح وان المولدين يغلطون فيها فيستعملونها محذوفة اليآء في كل حال وانما ورد عليهم ذلك من وقوعها في بعض القوافي المقيَّدة بهذه الصورة كما في قول البحتري

كانما يضحك عن لوئلوءٍ منظَّمٍ او بَرَدٍ او أَقاحْ

فتوهموا ان هذه اللفظة موضوعةٌ على ذلك . وقد ذكرنا ان اكثر الشعرآء كانوا يكتفون من اللغة بالالفاظ الدائرة في الاستعمال ولا سيما في الشعر الذي هو صناعتهم الخاصة فالذي سمع الاقاح اول مرةٍ ولم يتفطن لاصلها توهمها اسم جنس بمنزلة البشام والأَراك فاستعملها كذلك وتناقلها من جآء بعدهُ على تلك الصورة حتى تُنوسي اصلها بالمرّة وصارت اسماً مفرداً يذكّرونهُ في اللفظ كما في قول ابن الرقّاق

ومدَّ لبسمهِ راحةً فخلتُ الأَقاحَ دنا قطفهُ

وربما افردوا الواحدة منهـا بالتآء فقالوا أَقاحة كما يقال لواحدة البَشام بَشامة ولواحدة الأَراك أَراكة ومن هذا قول لسان الدين بن الخطيب

شمل الرضى فكأنّ كل أَقاحةٍ　　تومي بثغرِ للسلام شنيبِ

وهذا غريبٌ من مثل لسان الدين على طول باعهِ في اللغة ورسوخ قدمهِ فيها .　　ومثلهُ قول ابن زمرك

فضح الغزالة والاقاحة والقنا　　مهما تثنى او تبسم او نَظَرْ

وقال ايضاً رحمهُ الله

البستهُ من مديحي خاتماً نقشت　　فيهِ شهادتها الاملاكُ والرسلُ

فجمع المَلَك الذي هو واحد الملائكة على أملاكٍ ولم يُسمع هذا الجمع منهم لانهم يردّونهُ عند الجمع الى اصلهِ الذي هو ملأَكٌ ثم يجمعونهُ على ملائك او ملائكة ولكنهُ جمعهُ على لفظهِ كما قيل في جمع الريح ارياح باليآء . ومثلهُ قول البهآء العاملي من دوبيت

استنكفُ ان مشيتُ في روضتها　　فالمشي على اجنحة الأَملاكِ

وقول ابن زمرك

يا خيرمَن ملك الملوكَ بجودهِ　　وبفضلهِ قد اشبه الأَملاكا

ومن ذلك قولهُ

فتّاكة اللحظ غرّتني لواحظها　　لما رأيتُ عليها فترة النَعَسِ

وانما النَعَس من كلام العامّة لانهم يقولون في الفعل نَعِسَ بالكسر من حدّ تَعِبَ فيكون المصدر النَعَس على القياس ولكن المنصوص عليهِ في كتب اللغة نَعَسَ بالفتح من باب مَنَع والمصدر النُعاس بالضم على حد الزُكام والعُطاس . وهذا البيت من قصيدةٍ بعث بها الى المرحوم الشيخ ابرهيم الاحدب الطرابلسي وقد اجابهُ عليها بقصيدةٍ من بحرها وقافيتها جآء فيها

ايضاً وهو بيت المطلع

قد غازلتني مهاة السرب والانس فنبَّهتني لحب الغيد بالنَعَسِ

على ان الذي عندنا ان لغة العامّة في هذا الحرف أَقيَس لانهُ من الافعال الدالّة على الاحوال الطبيعية مثل خَدِرَ وسَدِرَ وثَمِلَ وسَكِرَ فحقهُ ان يكون ماضيهِ بالكسر وأن يكون مصدرهُ على فَعَل بفتحتين لا على فُعال لان هذا مخصوص بالادوآء وما جرى مجراها كالزُكام والصُداع والسُعال . ويؤيّدهُ ان العرب تقول بمعناهُ وَسِنَ وَسَناً وكَرِيَ كَرًى من باب تَعِبَ فيهما وربما قالوا في الوصف منهُ نَعْسان كما يقولون وَسْنان وكَرْيان ولكن كذا جرى هذا الفعل على السنتهم . ومن ذلك قولهُ

انا عبدٌ لهُ لي رفعُ رأسٍ بذاك وللحواسد رغمُ انفِ

وانما الحواسد جمع حاسدة لا جمع حاسد وهو غير مرادهِ كما لا يخفى ولكن الشعرآء استباحوا مثل هذا وهو كثيرٌ في كلامهم كقول القاضي الفاضل

ماذا تقول اللواحي ضلَّ سعيهمُ وما تقول الاعادي زاد معناهُ

كذا يروى عجز هذا البيت واراد باللواحي جمع اللاحي كما يدل عليهِ الضمير من قولهِ سعيهم . ومثلهُ قول ابن نباتة

وليت عواذلي في الحبّ كفّوا حديثاً قطُّ ما اجدى لَدَيَّا

وقال رحمهُ الله في مطلع بديعيتهِ

عاجَ المتيَّم بالاطلال في العلمِ فأبرع الدمع في استهلاله العَرِمِ

فاستعمل العَرِم وصفاً بمعنى الغزير وانما العَرِم جمع عَرِمة بفتح فكسر وهي السَدُّ يُعترَض بهِ الوادي وقيل هو المطر الشديد لا يطاق وبكليهما فُسِّر

سيل العَرِم المشهور ولكن هذا الاستعمال سبق لغيرهِ ومنهُ قول الصفيّ الحلّي

أمن عمىً نزل الناس الربى فنجوا　　وأنتمُ نصب سيل الفتنة العرمِ

واما قولهُ ابرع فاراد بهِ جآء بالبراعة كما يقال أبدع اذا جآء بامر بديع وأغرب اذا جآء بشيءٍ غريب وأملح اذا جآء بمُلحةٍ اي بكلمة مليحة وهو كثيرٌ في اللغة . وقد اسلفنا فيما اخذناهُ على القاموس ان ليس كل لفظةٍ خلت عنها نصوص اللغة تُعَدّ خطأً ولكن كل ما وافق القياس عُدَّ صحيحاً وكان حريًّا بان يُلحق بكلامهم وان لم ينطقوا بهِ . ونحن ذاكرون هنا ما اتفق لنا العثور عليهِ من مثل ذلك في كلام الشعرآء كقول ابي نواس

يا حسننا وبحار القصف تغمرنا　　في لجة الليل والاوتار تغتردُ

تغترد تفتعل من غَرِدَ الطائر وزان فرحَ اذا طرّب في صوتهِ استعارهُ للاوتار واراد انها تشترك في التغريد كما يقال اصطخبت الطير اذا اختلطت اصواتها . ومعلومٌ ان افتعل كثيراً ما يأتي للمشاركة نحو اضطربت الامواج واعترك القوم واعتلجوا واشتوَروا وائتمروا وهو قياس وان لم يطّرد سماعهُ من كل مادّة .　　وقال ابو العتاهية

غدا هرون يرعد بالمنايا　　ويبرق بالمذكَّرة العضاب

اراد بالمذكَّرة السيوف شفراتها من الحديد الذكَر وهو خلاف الانيث والعضاب القاطعة مفردها عَضْب ولم يُنقل العِضاب في جمع العضْب ولكنهُ قاسهُ على نحو صَعْب وصعاب وضخْم وضخام وفِعال في جمع فعْل الساكن الوسط كثيرٌ سوآء كان وصفاً كما ذُكر ام اسما مثل سهْم وسِهام

ونَصْل ونِصال . وقال بَشّار

فاصبحتَ تجري سادراً في طريقهم ولا تتقي اشباه تلك النقائمِ

يريد بالنقائم النِقَم واقرب ما يكون اراد بها ان تكون جمع نقيمة ولم ينقَل من هذا الا قولهم فلان ميمون النقيمة اي النفس وهي لغة في النقيبة لكن بَشّاراً عاد بهذه اللفظة الى القياس فاخرجها على مثال الفضيلة والجريمة والبليّة وما اشبه ذلك من الاسمآء . ومثلهُ قول ابي نواس

فلست اخشى نفسي على طمعٍ اخاف فيهِ دريكة العارِ

والمنقول في الدريكة انها بمعنى الطريدة واراد بها تبعة العار على حدّ الدَرَك مثلاً فاخرجها على مثال ما تقدّم . وقال ابن دُرَيد

لا تسألني واسأل المقدار هل يعصم منهُ وَزَرٌ او مُذدَرَى

اراد بالمُذدرَى المكان يُتَّخذ ذَرَى اي كِنًّا يُستتَر بهِ والمعروف من هذا استذرى بالشيء وتذرّى بهِ ولكن افتعل كثيراً ما يأتي مرادفاً لتفعّل كما يقال تردّى الثوب وارتداهُ وتعمّم واعتمّ وتنطّق وانتطق . ومن هذا القبيل قولهُ من هذه القصيدة

ما انصفت امُّ الصبيَّين التي اصبت اخا الحلم ولمّا يُصطبَ

والمنقول في اللغة تصبّتهُ اذا دعتهُ الصبوة ولم يُحكَ اصطبَتْهُ ولكنهُ اخرجهُ على ما ذكر من الترادف بين افتعل وتفعل كما جآء في قولهِ

مَن لك بالمهذَّب الندب الذي لا يجد العيبُ اليهِ مُختطَى

المُختطَى اسم مكان من اختطى وهو وتخطّى بمعنى وكلاهما محكيّان عنهم .

وقال ابن عابد الهاشمي

وارحمتاهُ لذي الهوى من جاهل متعـاقل ومغفّـل يتذاكى

اراد بيتذاكى يُري من نفسهِ الذكآء وهو غير منقول عنهم ولكنهُ قاسهُ على يتعاقل وهو بابٌ مشهور في اللغة . ومثلهُ قول ابي النصر الهزيمي

يتسابق الادبآء في ميدانهم وابو الفوارس خلفهم متحاجلْ

اي يُري من نفسهِ انهُ يحجل . ومن هذا قول الحريري في المقامات

تعارجتُ لا رغبةَ في العرَج ولكن لأقرع باب الفرَج

وقال ابن الرومي

هم استلدغوا رُقش الافاعي ونبهوا عقارب ليل نائمات حُماتُها

ولم يُنقَل استلدغ الحية في كتب اللغة اذا حملها على لدغهِ ولكنهُ قاسهُ على استنبح الكلب اي حملهُ على النباح واستعدى الفرس واستحضرهُ اي حملهُ على العَدْو او الحُضر وهو يستنزل العُصْم اي يدعوها الى النزول وغير ذلك وهو كثير . وقال الحسين بن حجّاج

يا حدّة الرمد الذي لا يستفيق من القطُور

اراد بالقَطُور ما يُقطَر في العين الرمدآء من الادوية وهو غير محكيّ عنهم بهذا المعنى ولكنهُ قاسهُ على ذَرُور وسَفُوف ووَجُور وسَعُوط وغير ذلك من اسمآء الادوية . وقال تميم بن معدّ

لئن وعدتني وصلها وعد عاتب يجاحدني وعدي وينكرني حقّي

اراد بيجاحدني يجحدني مرةً بعد اخرى كما حققّنا من معنى هذه الصيغة في مقالة اللغة والعصر ولم يجئ جاحَدَهُ في اللغة ولكنهُ قاسهُ على طالَبَهُ وماطَلَهُ وراقبَهُ وما اشبه ذلك . وقال المعرّي

والناس في غمراتٍ من مقالهمِ لا يظفرون بغير المنطق الوَدِسِ

اراد بالوَدِس المعيب ولم يحكوا من هذا الا الوَدَس بفتحتين بمعنى العيب وهو اشبه ان يكون مصدراً من باب تَعِبَ فصاغ منهُ فعلاً واشتقّ الوصف منهُ على فَعِل بفتحٍ فكسر كما يقال من تَعِبَ تَعِبٌ ومن حَذِرَ حَذِرٌ وهو القياس

وهذا بابٌ واسع نجتزئ منهُ بهذا القدر وفيهِ غنآءٌ للّبيب ومن أوتي رويّةً نقّادة وكان بصيراً بمعاني اوضاع اللغة عارفاً بطُرُق اشتقاقها ومجازها كفتهُ في مثل هذا اللمحة الدالّة والاّ لزمنا ان نضع في تلك الالفاظ معجماً مخصوصاً . ومما ذكرنا في هذا الفصل تعلم مرادنا بما طالما حثثنا عليهِ من التزام طريقة العرب في الوضع والقصد من ذلك انما هو الحرص على وحدة اسلوب اللغة وتواطؤ قديمها وحديثها على وجوهٍ من الوضع لا تنافُر بينها ولا تبايُن . وهذا انما يكون بمتابعة سُنّة الواضع في صوغ القوالبِ اللفظية وتفريع بعض المعاني من بعض بحيث تتوفر المجانسة بينها ويتهيأ رد كل فرعٍ الى اصلهِ وهو ما يشفّ عنهُ صنيع الواضعين الاولين فيما نُقِل الينا من الفاظهم الا ما شذّ عن ذلك مما سبق لنا التنبيه عليهِ في اوائل هذا الفصل . وفي مراجعة ما كتبناهُ في فصل اللغة والعصر زيادة تبصرةٍ في هذا المعنى والله سبحانهُ وتعالى اعلم وهو الهادي الى سوآء السبيل

سمع الكنديّ وهو يعقوب بن الصباح المسمى في وقتهِ فيلسوف الاسلام انسانا ينشد

وفي اربعٍ مني حلت منكِ اربع فما انا ادري ايها هاج لي كربي

خيالكِ في عيني ام الذكر في فمي ام النطق في سمعي ام الحب في قلبي

فقال والله لقد قسمها تقسيماً فلسفياً